تفسير إبن كثير

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ

وقوله : (قل أمر ربي بالقسط) أي : بالعدل والاستقامة ، (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) أي : أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها ، وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن االله تعالى وما جاءوا به عنه من الشرائع ، وبالإخلاص له في عبادته ، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين : أن يكون صوابا موافقا للشريعة ، وأن يكون خالصا من الشرك .وقوله تعالى : (كما بدأكم تعودون فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) - اختلف في معنى قوله تعالى (كما بدأكم تعودون) فقال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : (كما بدأكم تعودون) يحييكم بعد موتكم .وقال الحسن البصري : كما بدأكم في الدنيا ، كذلك تعودون يوم القيامة أحياء .وقال قتادة : (كما بدأكم تعودون) قال : بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئا ، ثم ذهبوا ، ثم يعيدهم .وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كما بدأكم أولا كذلك يعيدكم آخرا

.واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير ، وأيده بما رواه من حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج ، كلاهما عن المغيرة بن النعمان ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قام فينا رسول االله صلى االله عليه وسلم بموعظة فقال : " يا أيها الناس ، إنكم تحشرون إلى االله حفاة عراة غرلا (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين) [الأنبياء : 104] .وهذا الحديث مخرج في الصحيحين ، من حديث شعبة ، وفي حديث البخاري - أيضا - من حديث الثوري به .وقال وقاء بن إياس أبو يزيد ، عن مجاهد : (كما بدأكم تعودون) قال : يبعث المسلم مسلما ، والكافر كافرا .وقال أبو العالية : (كما بدأكم تعودون) ردوا إلى علمه فيهم .وقال سعيد بن جبير : (كما بدأكم تعودون) كما كتب عليكم تكونون - وفي رواية : كما كنتم تكونون عليه تكونون .وقال محمد بن كعب القرظي في قوله تعالى : (كما بدأكم تعودون) من ابتدأ االله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه ، وإن عمل بأعمال أهل السعادة ، كما أن إبليس عمل بأعمال أهل السعادة ، ثم صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه . ومن ابتدئ خلقه على السعادة ، صار إلى ما ابتدئ خلقه عليه ، وإن عمل بأعمال أهل الشقاء ، كما أن السحرة عملت بأعمال أهل

الشقاء ، ثم صاروا إلى ما ابتدئوا عليه .وقال السدي : (كما بدأكم تعودون فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) يقول : (كما بدأكم تعودون) كما خلقناكم ، فريق مهتدون وفريق ضلال ، كذلك تعودون وتخرجون من بطون أمهاتكم .وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قوله : (كما بدأكم تعودون فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) قال : إن االله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمنا وكافرا ، كما قال تعالى (هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) [التغابن : 2] ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأهم مؤمنا وكافرا .قلت : ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري " فوالذي لا إله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع - أو : ذراع - فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار ، فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع - أو : ذراع - فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة ، فيدخل الجنة "وقال أبو القاسم البغوي : حدثنا علي بن الجعد ، حدثنا أبو غسان ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد قال : قال رسول االله صلى االله عليه وسلم : " إن العبد ليعمل - فيما يرى الناس - بعمل أهل الجنة ، وإنه من أهل النار . وإنه ليعمل - فيما

يرى الناس - بعمل أهل النار ، وإنه من أهل الجنة ، وإنما الأعمال بالخواتيم "هذا قطعة من حديث رواه البخاري من حديث أبي غسان محمد بن مطرف المدني ، في قصة " قزمان " يوم أحد .وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر ، عن النبي صلى االله عليه وسلم أنه قال : " تبعث كل نفس على ما كانت عليه "وهذا الحديث رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه ، عن الأعمش ، به . ولفظه : " يبعث كل عبد على ما مات عليه "قلت : ولا بد من الجمع بين هذا القول - إن كان هو المراد من الآية - وبين قوله تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة االله التي فطر الناس عليها) [الروم : 30] وما جاء في الصحيحين ، عن أبي هريرة ، رضي االله عنه ، أن رسول االله صلى االله عليه وسلم قال : " كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه " وفي صحيح مسلم ، عن عياض بن حمار قال : قال رسول االله صلى االله عليه وسلم : " يقول االله تعالى : إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم " الحديث . ووجه الجمع على هذا أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر ، في ثاني الحال ، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده

، والعلم بأنه لا إله غيره ، كما أخذ عليهم بذلك الميثاق ، وجعله في غرائزهم وفطرهم ، ومع هذا قدر أن منهم شقيا ومنهم سعيدا : (هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) [التغابن : 2] وفي الحديث : " كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها " وقدر االله نافذ في بريته ، فإنه هو) الذي قدر فهدى) [الأعلى : 3] و (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) [طه : 50] وفي الصحيحين : " فأما من كان منكم من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة "